

الحداثة الشعرية والممارسة النقدية

شرفاوي نورية*

مقدمة

القصيدة الحداثية قصيدة متلونة غير ثابتة والبحث عن الحقيقة من خلالها هو بحث عن المستحيل والمجهول لأن معانيها تتوالد من متلقي لآخر سواء اكانوا من نفس العصر او اختلفوا في ذلك. وقد حاول الشاعر السوري الكبير نزار قباني الكشف عنها من خلال كتابه ما هو الشعر حيث قال عنه (ليس له عمر معروف او اصل معروف. ولا احد يعرف من اين اتى؟ وبأي جواز تنقل)¹، لانه وبكل بساطة شعر انساني عالمي. وفي شان مطادته للمجهول يصرح بأن الشعر الحداثي لا يحدد بزمان معين ولا مكان ولا يعرف هويته، انه الغريب المجهول وقد أقر عجز كتابه هذا في تحديد الشعر الحداثي، حيث أسهب قائلاً (لا اقول لكم في أي جزيرة يسكن الشعرو في أي فندق يقيم، وفي أي مقهى يجلس وما هو عمره، ولون عينه، وهواياته المفضلة)² هي حيرة اذا صرح بها الشاعر الناقد عن مجهولية هذا الشعر وغموضه لغة وموسيقى.

الحداثة النقدية عند النقاد والشعراء العرب المعاصرين:

لقد طرح "شكري غالي" من خلال كتابه (شعرنا الحديث الى اين؟) اشكالا كبيرا قد تكون الاجابة عنه غير محددة ولا موضوعية فالحداثة (ليست منهجا أدبيا، مثل الوضعية والماركسية والوجودية ،...تحليل للتاريخ والاجتماع والسياسة)³ فالمنهج له ضوابط توصل به للحقيقة والحداثة لا حقيقة لها فهي (رؤيا تقتحم السائد وتهاجم التخلف)⁴ فهي لغة تغيرية ، ثورية ضد كل الاشكال المتوارثة وهذا ما أكد عليه الشاعر العراقي "عبد الوهاب البياتي " فعدها (ثورة عن السلطة الابوية واللغوية) على المستوى المعجمي والفكري عامة. معاني جديدة تواكب الدفق الحداثي القائم على منطق التمرد والكشف والمغامرة وهذا ما أطلقت عليه الناقدة السورية "خالدة سعيد " مصطلح الحداثة الفكرية فهي (انتقال من حيز الجمود الى الخلق والابداع)⁵ خلق يستهدف القديم ثم يعيد بناءه من جديد تتأسس على ضوئه علاقة جديدة بين العالم والانسان اما "أدونيس" كرائد من الرواد المنظرين للحداثة الشعرية: فقد دعا الى تجاوز المفاهيم التقليدية ويظهر ذلك جليا خصوصا في كتابه المشهور "الثابت و المتحول بحث في الاتباع والابداع عند العرب" حيث يرى أن الشعر (خرق مستمر للقواعد والمقاييس)⁶ خلخلة للبنية اللغوية وهكذا

* شرفاوي نورية، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مستغانم.

يصبح (النص العربي الابداعي نصا مستقلا كانه يتحرك في مكان مستقل في هذا المكان تذوب الحدود التقليدية التي ارتسمت كحدود فاصلة بين الانواع الادبية، ولا يعود ثمة نوع صاف)⁷.

لهذا كان النص الحدائي قلقا دائما لا ينغلق على نفسه متعددا، فوضويا ليس له استقرارا في التقاليد الفنية، فكانت الحداثة عند "ادونيس" (هي كتابة تضع التاريخ موضع تساؤل مستمر وتضع الكتابة نفسها موضع تساؤل مستمر، وذلك ضمن حركة دائمة من استكشاف طاقات اللغة واستقصاء ابعاد التجربة)⁸ لذلك هو يدعو الى انفتاح النص الشعري لانه (يتجدد مع كل قراءة، لا ينتهي، لا يستنفذ، هذا ما يميز الاعمال الشعرية الخلاقة)⁹ شرطا ان يتجاوز الايديولوجيات فكل قصيدة (تتحل الى عناصرها التي انطلقت منها سواء كانت لغوية أو اجتماعية ... لا تكون شعرا)¹⁰ فهي فعل يتجاوز حتى اللغة نفسها فما بالك بالايديولوجيات.

ولا يمكن الحديث عن الحداثة في العالم العربي دون الولوج في عالم "عبد السلام المسدي" المعروف بفضائه الاسلوبي من خلال كتابه (النقد والحداثة) فلخصها في قوله (هي ثورة على الدوال والمدلولات)¹¹ ثورة على الشعر القديم في شكله ولغته، شعريواكب هذا العالم الممزق الضائع قصد ذلك كانت الشعرية الحديثة ضائعة.

وهذا "يوسف الخال" الناقد اللبناني يقدم لنا تصوره لشعرية الحداثة من خلال كتابه (الحداثة في الشعر) فهي تقوم او لا على (التعبير عن التجربة الحياتية كما يعيها المبدع، وثانيها عن المفردات المبتدلة وثالثها أن يكون الايقاع الشعري ملائما ومناسبا لحركية العصور ورابعها أن الموضوع الوحيد والاحادي للشعر هو الانسان والعالم)¹² حداثة تراعي وعي الشاعر، موضوعها الانسان والعالم وايقاعها يتماشى وحركية العصور وكل ذلك يتم بشحنها بدلالات جديدة، فهي اذا صورة من صور البحث عن التجديد المستمر.

اما الناقد "عبد الله حمادي" فيرى ان الحداثة هي (الرغبة المستمرة في التحول الى هاجس لافراز الادراك الواعي الممسك باللحظة التاريخية التي يتلاشى عنها كل شيء بين طرفي الزمان الذي كان والزمان الذي يكون)¹³ هي اذا لحظة هاربة نحو المستقبل لا ماضي لها ولا حاضر وهو يتفق مع النقاد السابقين في كونها سؤالا مستمرا حيث يقول (انها سؤال مفتوح لا تأتي السنوات بالاجابة عنه مهما حبلت بالتجارب والمعرفة)¹⁴ كما يراها ايضا (خلخلة البنيات الذوقية والجمالية السائدة)¹⁵. ترفض قواعد البلاغة الجاهزة، تتطلب بنيات لغوية عن تلك التقليدية لأنها قصيدة منفتحة على المستقبل، انها الهدم المستمر للبنية الثانية فكانت قصيدة الحركة والهدم الخلق الجديد.

أما "محمد بنيس" فقد قسمها الى حداثيتين متباينتين: حداثة تقليدية وحداثة الرومانسية العربية والشعر المعاصر لذلك تنطلق الرومانسية العربية من المستقبل في تأويلها للزمان في تحديد اتجاه التقدم كمفهوم محوري يفسر (التطور، التغيير، التحول، التجاوز والتخطي)¹⁶ (فالشاعريانس ليغير ويحول، أي أنه فرد يضئ للأفراد أو للغة الطريق في زمن الحلقة)¹⁷ ولا يمكن له الا أن يكون صادقا، نظرة تعتمد على طلق العنان للخيال كعنوان لحرية الذات بعيدا عن كل رقابة، فأصبح الشعر بذلك له قدرته في انتاج خطاب مغاير ولكنها حداثة أبقت على سيادة التقليد

لذلك سماها "محمد بنيس" (معطوبة) تارة و(معزولة) تارة أخرى. هذا ما لاحظته في شعر "الجواهري" في العراق و"سليمان العيسى" في سوريا و"محمد الحلوي" في المغرب. كما تعد "نازك الملائكة" نموذجا شعريا حداثيا أقصى ما وصلت اليه مسارات التجديد ومقومة الثقافة العربية من خلال لغتها في ظل اسس تفتقر الى التجديد و لمقدماته الفلسفية. أما "يوسف الخال" فقد ربط بين الحداثة واللازمية من ناحية وبينها وبين الحياة من ناحية أخرى (الحداثة في الشعر ابداع والخروج به على السلف وهي لا ترتبط بالزمن)¹⁸.

فهل الحداثة فعلا ابداع؟ هذا ما عارضه محمد بنيس، حيث قال(ان الدعوة الى الابداعية بدل الحداثة، هي مجرد دعوة الى الهيجلية)¹⁹ لذلك كان في نظره اهتمام المثقف العربي الحديث منذ بداية النهضة تكوين مجتمع عربي متقدم طبقا للمعيار الاوروبي قراءة وتاويلا.

هذا وقد حفل عالمنا العربي بعدد من اعلام الحداثة نذكر منهم عبد العزيز المقالح (اليمن)، عبد الله العروي (المغرب) محمد العابد الجابري (العراق) محمود درويش (فلسطين) محمد اركون وكاتب ياسين (الجزائر) وصالح عبد الصبور (مصر).

ومن هنا نخلص الى ان الحداثة الشعرية قد اخذت طابعها من خلال كتابات الرمزيين والسرياليين قلدها شعرونا النقاد فاخرجوها حلة عربية فكانت حداثة شعرية مبدعة لا تقل اهمية عن نظيرتها الغربية، حداثة لازمان لها ولا مكان لا ترتبها بمجال الزمن الحاضر ضرورة فمعناها كامن في مبدا النسبية سواء خص ذلك الزمن او الحكم والحقيقة او التصور فهي تتحدد اذا بمدى قدرة الاديب على ابتكار اسلوبه الادائي فلا يتقيد بانماط سائدة ولا معايير مطردة كالتحديث في البناء اللغوي (الالفاظ وعلاقتها بالاسلوب) والتحديث على مستوى الشكل الفني (ابتكار او كسر للحواجز بين الانواع الادبية) وربما هذا ما لمسناه كثيرا في حركة الحداثة الشعرية كمسلك جديد في الاداء التغييري، تجديد يستلزم تجديد النظام المفهومي المعرفي يباشر به النص الادبي كما لم يباشر به من قبل تنظير يباشر الباحث من خلاله الشرح ويرسم ادبية ابداعه، وهذا ما يستدعي بالضرورة تحديث لغة النقد فكان لازما على الناقد ابتكار مصطلحات نقدية جديدة وهو مالا يتوقف فقط على تجديد المفاهيم بالمصطلحات القائمة فيصير النقد بحثا باللغة عن اللغة فما علاقة النقد بالحداثة؟

القراءة والحداثة:

لم تعد القراءة تفسيرية شفافة كما يرى ياكبسون بل تحولت الى نص ابداعي اخر وهذا ما جعل الكثيرين يقعون في التباين بين مفهومي "القراءة والحداثة" نظرا لاتساع الاولى مفهوما وتجريدا، فمنهج القراءة كما قدمه المسدي اوله تنظير للرصيد الفلسفي وثانيه مواصفة بين التنظير والتطبيق للنص المراد قراءته وثالثه الممارسة على مستوى الفحص والتحليل التاريخية والنفسية وغيرها فطالب بذلك النقد الجديد في الثقافة الانجلوسكسونية باستكشاف العمل الفني في ذاته ولذاته لان (كل ما لا ينبع من العمل الفني نفسه هو في الواقع دخيل عليه)²⁰

كون الفن يقدم صورة خاصة عن طبيعته فقط (فوظيفته لا تتسع لنقل ما هو خارج عنها)²¹ فالعمل الادبي (وجود خاص له منطق له نظامه او بعبارة اخرى له بنيته التي تتميز عن بنية اللغة العادية باسقاط غرض الابلاغ من حساب الكاتب)²².

لذلك يلتقي النقد الجديد مع الشكلائية الروسية في (رفضها للفكر الوضعي وتركيزها على الفكرة الادبية وتحديد خصائصها التي تتميز بها عن غيرها من انواع الكتابة)²³، راي يرفضه احمد يوسف حيث يرى ان حتى الشكلائية الروسية قد (سقطت في نوع جديد من الوضعية الساذجة التي انسافت وراء النزعة العلمية)²⁴ وتأتي البنيوية لتلتقي مع النقد الجديد (في التمسك باستقلالية العمل الادبي كمؤسسة او كاعمال متميزة عما يسمى بالواقع الخارجي)²⁵.

ترتيب تعكسه الحداثة فيبدأ من حيث انتهت القراءة فتبدأ بالممارسة وفيها العدول على النمط السائد ثم المواصفة لتفسير هذا التجاوز الى ان يستقر عند التنظير حيث تتأسس قواعد الحداثة وتتجدد الرؤية فكانت اللسانيات هي الرافد الرئيسي للنقاد الادبي في البحث عن مقومات الكلام باعتباره ظاهرة بشرية مطلقة فكانت ثمرة من ثمار الثورة العلمية التي غزت بطاقتها الفكر النقدي الادبي فاستثمرها النقد الحديث حيث اضحى يستلهم من علم الدلالة مناهجه واختياراته خصوصا استعانت به بالعناصر الستة لجهاز التواصل (الباث، المتلقي، السياق، اداة الاتصال، مجموع السنن، والرسالة).

ثم تعدى ذلك الى علم السميائيات باعتبار اللغة نظاما من العلامات قبل كل شيء قصد ذلك اعتمدت النظرية الادبية في النقد على البعد اللغوي دون غيره فالادب نشاط فردي لغوي وليس تعبيرا اجتماعيا او ساحة للصراع الفكري (فالخطاب الادبي لا يهتم فحسب بالرسالة اللغوية وانما بالوسيط اللغوي ذاته)²⁶ هكذا فتحت استقصاءات فيكتور شكوفسكي، وفلاديمير بروب وميخائيل باختين اللامعة الباب امام نوع جديد من النقد الادبي، ينهض على دراسة اداة التعبير ذاتها واختلافات وظائفها في النص الادبي عن غيرها من الاستعمالات الاخرى فاهتمت بادبية النص مستندة على قاعدة من التحليل الهيكلي واللغوي للادب.

ولهذا عدت اعمال باختين من ابرز انجازات هذه المرحلة النقدية من القرن العشرين حيث اسس (انجازه النقدي على قاعدة صلبة من نظرية اللغة في كتابه الماركسية وفلسفة اللغة كما اسس من خلال هذا النقد تصورا جديدا للغة يختلفدون ان يتخلى عن الاهتمام ببنيته اللغوية ذاتها)²⁷ لذلك لاحظ بارث ان الكتابة الكلاسيكية لم تكن سوى وسيلة في خدمة المضمون فكانت البلاغة موضوع الدراسة ومحوها وبعد ظهور الكتابات الحديثة لم تحظ بكل هذا الاهتمام حيث اصبحت ادب مستحيل (كتابة بريئة وبيضاء اي في درجة الصفر فالحداثة تبدأ بالبحث عن الادب المستحيل)²⁸ فيعبر بذلك عن الوضعية الجديدة لا عن الايديولوجيات السائدة.

فكرست الحداثة جهدها لتحقيق مبدأ الاختلاف، فهي لا ترفض الالغاء والانكار للامعال الادبية القديمة لكنها ترفض التنشئة الاجتماعية لهذه الاعمال هذا ما لم يتضح للحركة الرومنسية ف وقعت في منزلق اختلطت فيه اوراق الاختلاف مع اوراق الانكار فاخترت كل المسائل الادبية في تلك الثنائية الخاطئة (الاختلاف /انكار التقليد) في ثورتها ضد الكلاسيكية وعلى العكس فقد فهمت السريالية ما اخفقت فيه الرومنسية واستخدمت التراث الادبي لتقديم التجربة الشعرية ولنا في ابولينار وازربونديو وتس اليوت الدليل القاطع في توظيف القديم بشكل حديث بهذا فقد حقق النقد ثورته باعتماده على تراكمياته المعرفية والمنهجية خاصة فكانت نوعا من رد الفعل على مدرسة سانت بيغ النقدية ورغم ما حققته في كثير من الاحيان لكنها لم تستطع الصمود امام التمحيص المعيارى الدقيق.

ففي ظل هذا الكم الهائل من النظريات النقدية الغربية، حاول النقد العربى ان يؤسس لنفسه مؤسسة نقدية جديدة منذ اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حالة من الانفتاح على التجربة الغربية بشئ من التأمل والاستقصاء من اجل ممارسة مبنية على اسس ومفاهيم وتصورات تثرى الادب العربى بتطوير اسئلته للكشف عن وظيفته الجمالية والمعرفية ويظهر ذلك جليا مع المدرسة الرومنسية العربية التي حاولت ان تقيم جسرا يربط الثقافة الغربية بالثقافة العربية لكنه في الحقيقة تنظير (لا يمتلك الاسس الاستمولوجية التي تدفعه لكي يحد اسئلته الخاصة وموضوعه الخاص، فهو تنظير اعزل ولا تقف خلفه عقلية مسلحة بالمعرفة وانما هو في مكان تصل اليه الاصداء ومن ثم يستحيل ان ينظر ناقد عربى للبنىوية او للسيميائية او لمنهج مثل البنىوية التكوينية، ولو زعم هذا الناقد انه يتسلح بالعلم او تتوق نفسه الى خلق نقد علمى اذ لابد من وجود ضغط علمى ولا بد من عطاء لعلم اللسانيات حتى يفكر في تجربتها ونقلها الى الادب والنقد)²⁹.

وفي الاخير نقول انه وفي كل الاحوال ان اي قراءة لا يمكن ان تجد لنفسها نهاية في اجتياح النص الادبي اذ(ليس من البديهي قطعاً ان نستطيع قراءة نص ما قراءة حقيقية)³⁰ قصد ذلك كان مفتوحاً لقراءات متعددة فكان ما يعرف بالنص الخالد الذي يحمل اكثر من قراءة فيعمل على اثاره القراء وتساؤلاتهم وهي متفاوتة من قارئ لآخر بحسب الياته وتوجهاته وهذا ما جعل القراءة اليوم من بين المصطلحات النقدية الاكثر اثاراً حتى انها (زحزحت مفهوم النقد في حد ذاته وازاحتها وانزاحت عنه لما لها من علاقة بانفتاح النص وتعددية قراءاته)³¹.

هوامش البحث:

- 1- ينظر: نزار قباني: "ماهو الشعر. منشورات نزار قباني . بيروت ط 3 2000. ص20.
- 2- المرجع نفسه: ص18.
- 3- ينظر: غالى شكري، برج بابل النقد والحداثة الهيئة المصرية العامة للكتاب ط 2 1990، ص150.
- 4- المرجع نفسه: ص150.
- 5- ينظر: خالدة سعيد : الملامح الفكرية للحداثة مجلة فصول ص39.
- 6- ادونيس: زمن الشعر دار العودة بيروت ط 2 1978 ص312.
- 7- ادونيس: سياسة الشعر دراسات في الشعرية العربية المعاصرة دارالاداب بيروت ط 1 1985 ص28.

- 8- مجلة عالم الفكر :مج 23 ع 1-2. 1994 ص 486.
- 9- ادونيس: زمن البدايات دارالاداب ط 1 1989 ص 27.
- 10- ينظر ادونيس: زمن الشعر ص 317.
- 11- ينظر: عبد السلام المسدي : النقد والحداثة دار الطليعة بيروت ط 1 1983 ص 13.
- 12- يوسف الخال : الحداثة في الشعر ' دار الطليعة بيروت ط 1 1972 ص 80، 81.
- 13- زريقط عبد المجيد : الحداثة في النقد الادبي المعاصر دار الحرف العربي دمشق ط 1 1991 ص 194.
- 14- عبد الله حمادي: ديوان البرزخ والسكين منشورات جامعة منتوري قسنطينة الجزائر ط 1 2000 ص 9.
- 15- نفسه ص 10 .
- 16- ينظر محمد بنيس : الشعر العربي الحديث بنياته وابدالاتها ص 160.
- 17- نفسه ص 162.
- 18- يوسف الخال: الحداثة في الشعر ص 15.
- 19- محمد بنيس الشعر العربي الحديث ص 169.
- 20- ينظر رشاد رشدي : النقد والنقد الادبي دار العودة لبنان 1971 ص 86.
- 21- ينظر احمد يوسف : القراءة النسقية ومقولاتها النقدية دار الغرب للنشر والتوزيع ص 89.
- 22- شكري عياد: موقف من البنيوية مجلة فصول القاهرة مج 1 ع 1 جانفي 1981 ص 188.
- 23- ديفيد روسي : نظرية النقد الادبي الحديث دار الامين القاهرة ص 86.
- 24- احمد يوسف : القراءة النسقية ص 91.
- 25- شكري عياد : موقف من البنيوية ص 191.
- 26- مجلة فصول _مجلة القد الادبي الهيئة المصرية العامة للكتاب العدد 70 شتاء ربيع 2007 ص 208.
- 27- نفسه ص 209 .
- 28- نفسه ص 31 .
- 29- ينظر محمد الدغمومي - نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر سلسلة رسائل واطروحات جامعة محمد الخامس منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية الرباط 1999 ص 210 .
- 30- مجموعة مؤلفين بحوث في القراءات والتلقي تر. محمد خير البقاعي مركز الانماء الحضاري حلب 1998 ص 28.
- 31- القراءة واشكالها المنهج- اعمال ندوة جمعها وقدمها الهادي الجطلاوي كنوز المعرفة جامعة نزوى ص 484 .